

قال أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الفقيه الأندلسي رحمة الله . الحمد لله على عظيم منته ، وصلى الله على محمد عبد وختام أنبيائه ورسله ، وأبدأ إليه تعالى من حول والقوة . وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره . وبخواتم في الآخر من كل هول ومضي . أما بعد (فإني جمعت في كتابي هذا معانى كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى ، بمروي الأيام وتعاقب الأحوال ، بما منحني عزوجل من التهم (1) بتصاريف الزمان ، والإشراف على أحواله . حتى أتفق في ذلك أكثر عمرى ، وأثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، وعلى الأزيد من فضول المال ، ودممت كل ما سبرت (1) من ذلك ، ليتفع الله تعالى به من يشاء من عباده ، ممن يصل إليه ما أتعبت فيه نفسي وأجهتها فيه ، وأطلت فيه فكرى فياخذه عفواً ، فيكون ذلك أفضله من كنوز المال وعقد الأملاك ، إذا تدبره ويسره الله تعالى لاستعماله . وأنما راج في ذلك من الله تعالى أعظم الأجر ، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم ، وبالله تعالى أستعين . في مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق النميمة (6) لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعامه ، ولذة الحكيم بحكمته ، وبرهان ذلك . أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل ، واجدون لسائر اللذات التي سمينا كما يجدها المنهمك فيها . ويحسونها كما يحسها الم قبل عليها . وإنما يحكم في الشئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر . إذا تعقبت (1) الأمور كلها فسدت عليك وانتهت في أخذ (1) تعقبت : أى طلبت عورتها وعثرتها . فسدت عليك فاذاك عقباها ، وحل بك اليأس من جدواها وهو أقرب توجيه لصحة العبارة . فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا - إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط . لأن كل أمل ظهرت (1) به فعقباه حزن . إما بذها به عنك وإنما بذهابك عنه ؛ ولا بد من أحد هذين السبيلين ، إلا العمل الله عزوجل ، فعقباه على كل حال سرور في عاجل وأجل . وأنك معظم من الصديق العدو . طلبتك غرضًا يسوى الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده ، فلما تدبرته عامت أن الناس كلهم لم يستروا في إستحسانه فقط ، حركة أصلام . إلا فيما يرجون به طرد لهم . ينطقون بكلمة أصلام ومن مصيبة ، وهو الأقل . (1) هي كذلك بالأصل ومعناها غير بين ، والظاهر أنه مصحفة من قوله (ظفرت) . فطرد لهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها مذ خلق الله تعالى العالم ، إلى أن يتناهى عالم الابتداء ، على أن لا يعتمدو بسعفهم شيئاً سواه . وكل غرض غيره ، ففي الناس من لا يستحسنـه إذ في الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة ، ومن الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت ، ويؤثر عدمه على وجوده . ومن تلامـهم من الزهاد والفلـاسـفة (2) وفي الناس من يبغضـ اللذـاتـ بـطـبـعـهـ ، كـمـنـ ذـكـرـنـاـ مـنـ الـمـؤـثـرـينـ فـقـدـ الـمـالـ عـلـىـ اـقـتـائـهـ . يؤثرـ الجـهـلـ عـلـىـ الـعـلـمـ ، وهـذـهـ هـيـ أـغـرـاضـ النـاسـ ، الـتـيـ لـاـ غـرـضـ لـهـمـ سـوـاـهـ . وـلـيـسـ فـيـ الـعـالـمـ مـذـ كـانـ إـلـىـ أـنـ يـتـنـاـهـيـ أـحـدـ يـسـتـحـسـنـ الـهـمـ ، وـلـاـ يـرـيدـ إـلـاـ طـرـحـهـ عـنـ نـفـسـهـ . الـذـيـ اـتـقـ جـمـيعـ أـنـوـاعـ الـإـنـسـانـ ، الـجـاهـلـ مـنـهـ وـالـعـالـمـ ، وـالـصـالـحـ وـالـطـالـحـ ، عـلـىـ السـعـىـ لـهـ . وـإـلـاـ إـنـاـ طـلـبـ الصـوتـ (1) مـنـ طـلـبـهـ لـيـطـرـدـ بـهـ عـنـ نـفـسـهـ (1) فـيـ الـقـامـوسـ : الصـيـتـ بـالـكـسـرـ الذـكـرـ الـحـسـنـ وـالـصـوـتـ فـيـهـ لـغـةـ هـمـ الـاسـتـعـلـاءـ عـلـيـهـ . وـنـكـحـ مـنـ نـكـحـ ، وـلـبـسـ مـنـ لـبـسـ ، وـرـكـبـ مـنـ رـكـبـ ، وـذـهـابـ مـاـ يـوـجـدـ مـنـهـ (1) هـكـذاـ وـرـدـتـ فـيـ أـصـوـلـ الـطـبـعـاتـ الـثـلـاثـ الـتـيـ رـجـعـنـ إـلـيـهـ وـهـيـ طـ . الـفـبـانـيـ الدـمـشـقـيـ ، طـ . وـالـمـعـنـىـ بـهـ غـامـضـ وـأـهـلـ صـحـتـهاـ «ـفـوـتـهـاـ»ـ بـالـفـاءـ لـاـ بـالـقـافـ وـبـهـ يـنـضـحـ الـمـعـنـىـ وـيـسـتـقـيمـ الـسـيـاقـ . وـأـيـضاـ سـوـشـ (1)ـ بـالـحـصـولـ عـلـىـ مـاـ حـصـلـ عـلـيـهـ مـنـ ذـلـكـ ، مـنـ خـوـفـ مـنـافـسـ ، وـاـخـتـلـاسـ رـاغـبـ أوـ اـقـتـاءـ عـدـوـ ، مـعـ الـذـمـ وـالـإـثـمـ وـغـيرـ ذـلـكـ . وـوـجـدـ الـعـلـمـ لـلـآـخـرـةـ سـالـلـاـمـاـ مـنـ كـلـ عـيـبـ ، خـالـصـاـ مـنـ كـلـ كـدـرـ ، وـوـجـدـتـ الـعـاـمـلـ لـلـآـخـرـةـ إـنـ اـمـتـنـ بـمـكـرـوـهـ فـيـ تـلـكـ السـيـيلـ ، لـمـ يـهـتـمـ بـلـ يـسـرـ . إـذـ رـجـاؤـهـ فـيـ عـاقـبـةـ مـاـ يـنـاـلـ ، بـهـ عـوـنـ عـلـىـ مـاـ يـطـلـبـ ، وـزـاـيـدـ فـيـ الـغـرـضـ الـذـيـ يـقـصـدـ . لـمـ يـهـتـمـ ، إـذـ لـيـسـ مـؤـاخـذـاـ بـذـلـكـ ، فـهـوـ غـيرـ مـؤـثرـ فـيـ مـاـ يـطـلـبـ (1)ـ كـذـاـ جـاءـتـ فـيـ أـصـوـلـ الـطـبـعـاتـ الـمـخـلـفـةـ . وـالـعـبـارـةـ عـلـىـ حـالـهـ غـامـضـ مـبـهـمـةـ . وـالـظـاهـرـ أـنـهـ وـقـعـ بـهـ تـصـحـيفـ . وـإـنـ تـعـبـ فـيـمـاـ سـلـكـ فـيـهـ سـُرـ . فـهـوـ فـيـ سـرـورـ مـتـصـلـ أـبـداـ ، وـغـيرـهـ بـخـلـافـ ذـلـكـ أـبـداـ . وـلـيـسـ إـلـيـهـ إـلـاـ طـرـيقـ وـاحـدـ ، وـهـوـ الـعـلـمـ اللـهـ تـعـالـيـ . فـمـاـ عـدـاـ هـذـاـ فـضـلـ وـسـخـفـ . وـلـيـسـ ذـلـكـ إـلـاـ فـيـ ذـاتـ اللـهـ عـزـوجـلـ . فـيـ دـعـاءـ إـلـىـ الـحـقـ ، وـفـيـ حـمـاـيـةـ الـحـرـيمـ . لـمـ يـوـجـبـ بـهـ (1)ـ عـلـيـكـ خـالـقـكـ تـعـالـيـ نـصـرـ مـظـلـومـ . ، وـفـيـ كـبـائـعـ الـيـاقـوتـ بـالـحـصـاـ . الـاـ مـرـوـءـةـ لـمـنـ لـاـ دـيـنـ لـهـ . الـعـاـقـلـ لـاـ يـرـىـ لـنـفـسـهـ تـمـنـاـ إـلـاـ جـنـةـ لـإـبـلـيـسـ فـيـ ذـمـ الـرـيـاءـ حـبـالـةـ (1)ـ أـىـ لـمـ يـوـجـبـ عـلـيـكـ اـحـتمـالـهـ لـتـؤـجـرـ بـهـ وـالـحـالـ أـنـهـ لـيـسـ فـيـ اـحـتمـالـهـ وـالـصـبـرـ عـلـيـهـ أـجـرـبـابـ . وـاـسـتـعـمـالـ الـمـبـالـاـةـ بـكـلـامـ الـخـالـقـ عـزـوجـلـ . بـلـ هـوـ الـعـقـلـ كـلـهـ وـالـرـاحـةـ كـلـهاـ . مـنـ قـدـرـ أـنـهـ يـسـلـمـ مـنـ طـعـنـ النـاسـ وـعـيـبـهـ فـهـوـ مـجـنـونـ . وـإـنـ آـلـمـتـهـ فـيـ أـوـلـ صـدـمـةـ كـانـ اـغـبـاطـهـ بـذـمـ النـاسـ إـيـاهـ ، لـأـنـ مـدـحـهـ إـيـاهـ إـنـ كـانـ بـحـقـ ، وـبـلـغـهـ مـدـحـهـ لـهـ أـسـرـىـ ذـلـكـ فـيـ الـعـجـبـ فـأـفـسـدـ بـذـلـكـ فـضـائـلـهـ . وـإـنـ كـانـ بـيـاطـلـ فـبـلـغـهـ فـسـرـ فـقـدـ صـارـ مـسـرـورـاـ بـالـكـذـبـ . وـأـمـاـ ذـمـ النـاسـ إـيـاهـ ، فـرـبـمـاـ كـانـ ذـلـكـ سـبـبـاـ إـلـىـ تـجـنبـهـ مـاـ يـعـابـ عـلـيـهـ ، وـإـنـ كـانـ بـيـاطـلـ فـصـبـرـ . اـكـتـسـبـ فـضـلـاـ زـائـدـاـ بـالـحـلـ وـالـصـبـرـ ، وـكـانـ مـعـ ذـلـكـ غـائـمـاـ . لـأـنـهـ يـأـخـذـ حـسـنـاتـ مـنـ ذـمـهـ بـالـبـاطـلـ ، أـحـوـجـ مـاـ يـكـونـ إـلـىـ لـنـجـاةـ بـأـعـمـالـ لـمـ يـتـبـعـ فـيـهـ لـاـ تـكـلـفـهـ . فـكـلـمـهـ وـسـكـوتـهـ سـوـاءـ . وـلـيـسـ ذـكـرـ ذـمـهـ إـيـاهـ ، لـأـنـهـ غـائـمـ لـلـأـجـرـ عـلـىـ كـلـ حـالـ ، بـلـغـهـ ذـمـهـ أـوـ لـمـ يـبـلـغـهـ . وـلـوـلـاـ قـوـلـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ

عليه وسلم في الثناء الحسن: ذلك عاجل بشرى المؤمن لوجب العاقل في الذم بالباطل ، أكثر من رغبته في المدح بالحق ، ولكن إذا جاء هذا القول ، فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل ، فإنما تجب البشرى بما في المدح لا بنفس المدح .ليس بين الفضائل والرذائل ، والطاعات والمعاصي ، إلا نثار النفس وأنسها فقط . فالسعيد من أنسنت نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي . والشقي من أنسنت نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات ها هنا إلا صنع الله تعالى وحفظه طالب الآخرة متشبه بالملائكة . وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالبهائم . أسقط وأذل من أن يكون له في شيء من الحيوان شبه . ولكنه يشبه العذرات في الكهوف في المواقع الوعرة ، لا ينتفع بها شيء من الحيوان . العاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد . وإنما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات ، وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة . فمن سر بشعاعته التي يضعها في غير موضعها الله تعالى . فليعلم أن النمر أجرأ منه وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه . ومن سر بقوه جسمه فليعلم أن البغل والنور والفيل أقوى منه جسما . أن الحمار أحمل منه أن كثيراً من الطير أحسن صوتاً منه . وأن أصوات المزامير أذ وأطرب من صوته . فأى فخر وأى سرور فيما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه ،